حول ظاهرة العنف في المدارس
تجارب وانطباعات

عبد الحليم نمر اسليمي

كمعلم، أجد لزاماً علي أن أكتب في ظاهرة لطالما أرقتني وما زلنا حتى اليوم نعاني منها في مدارسنا وبيوتنا. من حين إلى آخر، نرى ونسمع باستخدام العنف اتجاه الطلبة أو بين الطلبة أنفسهم، وفي مثل هذه المواقف أتذكر نفسي طالباً في المدرسة.

عندما كنت طالباً عرفت فئتين من المعلمين، فئة المعلم الموصوف بالدماثة والأناقة وحلاوة اللسان، الميال نحو التجديد في أساليبه وأفكاره، وكانت دروس مثل هؤلاء المعلمين لا تُمل، بل سرعان ما تنتهي. الفئة الأخرى من المعلمين هي فئة المعلم الضيق الصدر، الكثير السخرية، الموصوف بالتوبيخ والوعيد والعقاب. مثل هذا المعلم عندما يسأل سؤالاً كانت ألسنتنا تنعقد وريقنا يجف، وإذا لم يوفق الطالب منا في الإجابة كان المعلم ينهال عليه ضرباً وجلداً، ويبقى الطالب منكس الرأس مضطرباً كئيباً طوال الحصة، وفي الليل يصاب بأرق ويبقى طوال الليل يفكر في الغد، ناهيك عن الأحلام المروعة التي تصل إلى حد الكوابيس.

عندما أصبحت معلماً قررت بلا أدنى تردد أن أتبنى النموذج الأول للمعلم: الذي يعتمد الحوار أسلوباً والصداقة مناخاً للتعلم، وهكذا سلكت سبيلي التعليمي آخذاً بأيدي طلابي، منمياً مهاراتهم وشخصياتهم، باثاً فيهم روح التعاون والتنافس البناء، مبتعداً عن العقاب البدني والكلام الجارح.

ولأن العمل والحياة لا يخلوان من انعطافات وتقلبات ومنغصات تمنعنا أحياناً من الوفاء بوعودنا، فإنني أحياناً نادرة كنت ألجأ إلى العقاب البدني. في إحدى المرات حاولت مرة أن أقلد نموذج المعلم العنيف لفرض سلطتي، فقمت بضرب طالب بالعصا، فأشاح وجهه فهوت العصا على وجهه، وصرخ الطالب متوجعاً متألماً واضعاً يده على عينه، عندها بدأ التفكير يأخذني بعيداً وراودتني مخاوف كثيرة، وماذا سيكون موقفي مع أهله، وتمنيت تلك اللحظة أن تعود عقارب الساعة للوراء كي أتجنب هذا الموقف، وكم كانت سعادتي كبيرة عندما أزاح الطالب يده عن عينه، وإذ بها سليمة، وشكرت الله كثيراً وأقسمت أن أتجنب العقاب البدني ما أمكن.

وأذكر موقفاً آخر لمعلم دفع طالباً بشدة، ما أدى إلى ارتطام رأسه بحديد الشباك فأدى ذلك إلى نزول قطرات من الدم على الدماغ ووفاة الطالب، وكم كان الموقف عصيباً على المعلم، وحزيناً لأهل الطالب، وسوداوياً على أهل البلدة، وصعباً على العائلتين، بحيث وصل إلى حد النزاع العشائري لولا تدخل أهل الخير والإصلاح.

وكربَّ أسرة، كثيراً ما أسمع أبنائي يمتدحون معلماً لصفاته الحميدة، وفي الوقت ذاته يتذمرون من معلم آخر لجموده ومعاملته لهم معاملة السيد والعبد. وقد تصل الأمور إلى حد أنهم يكرهون المادة لكرههم معلمها، وبذلك تتقطع سبل التواصل بين الطالب ومعلمه، ومهما كان الأمر فإن المعلم الذي يميل لإثبات سيادته بالقوة يكون عطاؤه أقل، وحصته أكثر فوضى من المعلم الذي يستخدم الأسلوب الحواري، ويعامل الطلاب كأصدقاء.

عندما أتحدث عن ظاهرة العنف المدرسي، فإنني لا أبالغ إن قلت أنها موجودة في المدارس، وتستحق منا الدرس والتحليل والمعالجة. إن هذه الظاهرة لا يمكن تحليلها بمعزل عن تحليل ظروف المعلم والطالب الاجتماعية والنفسية في المدرسة والمجتمع.

إن الإحباط وعدم القدرة على تحقيق الذات عوامل محفزة على تنشيط مناخات العنف المدرسي. وعلى صعيد دور المعلم، فإن ضعف الكفايات التعليمية عامل منتج للفوضى داخل الصف، وهذه الفوضى الناتجة تقود أغلب الأحيان إلى العنف، ففي ظل عدم التمكن المهني الضروري عند المعلمين من جهة، وغياب التدريب المستمر عن المدارس كوحدات تطوير، ترسخ العنف والعقاب كجزء محوري من البنية الرمزية والمؤسسية في مدرسة انحازت لدورها التأديبي والترويضي على حساب دورها كفضاء للحرية وأداة للتحرير.

وعلى صعيد المجتمع، فإن التجربة الديمقراطية لا تزال جنينية غير عميقة الجذور، وعلى هذا الأساس فإن غياب الديمقراطية بما هي احترام الرأي وحرية التعبير وتقبل النقد، تنعكس في المدرسة والمجتمع على شكل سلوكيات سلبية، بحيث يكون العنف المدرسي أحد تمظهراتها، جنباً إلى جنب مع الاستقطاب المتزمت ورفض الآخرين فكرياً. وفي السياق نفسه، فإن الشعور الحاد بالمرارة من ضغط الحياة الاقتصادية، وتبعات الاحتلال على المجتمع أديا تراكمياً إلى حالة دائمة من التوتر.

وفيما يتعلق بالمدرسة نفسها، فإن عدم تفعيل القوانين المدرسية الرادعة، وكذا عدم تفعيل دور المرشد التربوي على أكمل وجه سببان رئيسيان في تمادي حالة العنف.

وفي تقديري، فإن ظاهرة استخدام العنف- على بشاعتها- تبدأ منذ السنوات الأولى في العمر، حيث ما زالت بعض الأمهات والآباء يعاقبون الطفل بالضرب، وكذلك يسلطون الأطفال على بعضهم البعض، فيضرب القوي الضعيف، وتنتقل هذه الظاهرة مع الطفل إلى المدرسة.

من هنا، أرى أن المعالجة متشعبة، ويجب أن تبدأ بالبيت من خلال التربية السليمة. إن التربية من أهم النظم الاجتماعية، فهي تمد النظم الأخرى بالقوى البشرية التي تؤدي أدواراً ووظائف مختلفة في الحياة، وهي عامل من عوامل التغير الاجتماعي والثقافي.

وأما بالنسبة للمدرسة، فلا يجب أن ننظر إليها نظرة انغلاقية متشائمة، بل يجب أن نبحث عن علاج. تستطيع المدرسة أن تقدم برامج وأنشطة علاجية على مدار السنة؛ سواء أكانت رياضية أم فنية أم ثقافية أم اجتماعية يشارك بها الطلبة والمعلمون على حد سواء، وفي سياق ديمقراطي.

إنني اعتقد أن تعميق الشعور بالانتماء للمدرسة من قبل الطالب والمعلم، هي الخطوة الأولى على الطريق، وهذا يتطلب تأسيس حوار متواصل بين الطلبة مع بعضهم البعض، وبين الطلبة والمعلمين، بحيث يتكئ هذا الحوار على الموضوعية واحترام الرأي الآخر.

إن تنمية مواهب الطلاب والمعلمين واستغلالها أمران ضروريان للتخفيف من حدة العمل التعليمي ومتاعبه، وهذا يعني أن تنهض اللجان الثقافية والعلمية وتقوم بعملها لكي تتخلق روح التعاون والمنافسة الشريفة بدل التنافس العدائي.

إن كل ما ذكر سابقاً لا يعني شيئاً ما دامت هناك فجوة بين الطالب والمعلم، ولذا نحن مطالبون دوماً بالمبادرة لجسر الهوة وتوصيل ما انقطع من خطوط الاتصال بين عناصر العملية التعليمية.

وفي النهاية أقول إنه حين يبدأ استعمال العنف من قبل المعلم اتجاه الطالب، فإن ذلك بمثابة ارتداد على متطلبات المهنة الأخلاقية، وحري بنا كمعلمين أن نمارس عملنا في سياق أخلاقي، بما هو ضمانة وصمام أمان للعملية التعليمية برمتها.

عبد الحليم نمر اسليمي
منسق منتدى معلمي إذنا

من مسيرة للمعلمين وسط مدينة رام الله. (عدسة: وكالة "معاً")